"النقد الاجتماعي من خلال النثر في العصر الأيوبي"

(567- 648هـ)

" Social Criticism Society through Prose in the Ayyoubid"

د. عاهد طه عيال سلمان*

تاريخ الإرسال: 2019/11/24	تاريخ القبول:2019/12/22	تاريخ النشر:.2019/12/25

الملخص:

إنّ القراءة التاريخية للعصر الأيوبي، تظهر جانبا أدبيا مهما، اضطلع به عدد من الكتّاب آنذاك، إذ رصدوا ودونوا من خلال نثرهم أهم مظاهر الفساد التي ظهرت في المجتمع الأيوبي، وتصدوا لها بإسلوب نقدي أدبي، فكان النقد الاجتماعي الذي يعكس واقع المجتمع بتفاصيله اليومية، وينتقد سلبياته . مدفوعا بالمصلحة العامة لا الفردية . سلاحا في مقاومة الظلم والجور، ودافعا في وضع الأمة على الطريق الصحيح، ولفهم العلاقة بين تصور الكتّاب لمفهوم النقد الاجتماعي، ودوره في تصوير مظاهر الفساد، التي تفشّت في المجتمع الأيوبي، يتوجب علينا أن نقف على الأسباب التي دفعت الكّتاب في العصر الأيوبي، إلى طرق باب النقد الاجتماعي، ومدى مساهمة النثر الأدبي في تصوير الواقع، وتصويب المظاهر والأمراض الاجتماعية التي عانى منها المجتمع في تلك الفترة، وكذلك أهم الموضوعات التي طالتها يد النقد الاجتماعي في العصر الأيوبي.

الكلمات المفتاحية: النثر، المجتمع، النقد الاجتماعي، العصر الأيوبي

Abstract:

The historical reading of the Ayyubid era, shows an important literary aspect, carried out by a number of writers at the time, as they monitored and recorded through their prose the most important manifestations of corruption that emerged in the Ayyubid society, and addressed them in a manner of

المؤلف المرسل: د. عاهد طه عيال سلمان ahedtaha78@yahoo.com

* كليات التقنية العليا – الإمارات ahedtaha78@yahoo.com

المنارة للاستشارات

literary criticism, was social criticism that reflects the reality of society in its daily details, and criticizes Its disadvantages, driven by the public interest rather than the individual, as a weapon in resisting injustice and injustice, and motivating to put the nation on the right path, and to understand the relationship between the authors' perception of the concept of social criticism, and its role in depicting the manifestations of corruption, which was rampant in Ayyubi society, we must stand on the reasons that I paid the book In the Ayyubid era, to the ways of the door of social criticism, and the extent of the contribution of literary prose in the depiction of reality, and correct the social manifestations and diseases suffered by the community in that period, as well as the most important topics touched by the hand of social criticism in the Ayyubid era.

***Keywords**: Prose, Society, Social Criticism, Ayyubid era.*

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد

إنّ العلاقة بين الأدب والمجتمع علاقة جذرية متماسكة، فالأدب بحد ذاته ينبثق من المجتمع، ويصوّره تصويرا حقيقيا، ويعكس مظاهره وتفاصيله الدقيقة أيضا، كما يمكن للأديب أن يكوّن صورة حيّة عن الواقع الاجتماعي بأبعاده النفسية والفكرية والشعورية والماديّة.

وعند الوقوف على العصر الأيوبي(567- 648هـ) ، نجد أنّ المجتمع الإسلامي آنذاك كان يتكون من خليط أمشاج، من عناصروجنسيات متعددة متباينة في طبائعها وأخلاقها، فمنهم العرب والترك والفرس والروم والأرمن، ومن سلالات أوروبية استوطنت وتأقلمت، ولكل جماعة من هؤلاء تراثها الفكري والاجتماعي والديني[1]، كما تميز هذا العصر بالوحدة الإسلامية، فشهد وحدة مصر والشام تحت راية واحدة، وهذا يعني انصهار عقائد ومعتقدات، وعادات وتقاليد، شكّلت فيما بينها المشهد الاجتماعي في ذلك الوقت.

وكما كان للأحداث السياسية صداها في أدب ذلك العصر، كان للحياة الاجتماعية صداها كذلك [2]، فلعبت دورا كبيرا في تشكيل معالمه ومشاهده اليومية، فانعكست هذه

المنارة للاستشارات

الأحداث على المجتمع الأيوبي آنذاك، هذا المجتمع الذي شهد المعارك والحروب مع أعداء الأمة الإسلامية، وتحققت لها فيه العديد من الانتصارات والفتوح، تجلت بدحر الصليبيّين عن بيت المقدس في (583هـ)، فلا عجب أن يتوقف الأدباء أمام الظواهر الاجتماعية والسياسية، بين محتجّ وذامّ وساخر في بعض الأحيان، وبالتالي كان لنا أدب كثير في النقد الاجتماعي، غايته تصويب المسار، ورفع الظلم والجورعن أفراد المجتمع.

أولا: مظاهر الفساد في المجتمع الأيوبي

المجتمع الأيوبي كأيّ مجتمع إسلامي، يحمل في طيّاته العديد من المظاهر الاجتماعية، سلبا كانت أو إيجابا، ولا نريد في هذا المقام أن ننتقص من جهود القيادات في المجتمع الأيوبي، بقدر ما نريد تسليط الضوء على آفات وأمراض اجتماعية تفشت في المجتمع، وتبيان الأثر الكبير الذي تركته على أفرادها، وجاء على لسان كتّابها، ساخطين وموجهين سهام نقدهم لكل ما من شأنه أن يفتّ في عضد الأمة، رغبة منهم في تصويب مسارها والنهوض بها، في وقت قام فيه الأيوبيون بجهود عظيمة، فقد وحّدوا مصروالشام تحت راية واحدة، وواجهوا الصليبيّين ودحروهم، وحرّروا المقدسات الإسلامية.

لقد عانى المجتمع الأيوبي من شيوع المنكرات والمفاسد الأخلاقية، شأنه كشأن أي مجتمع، ومن بين هذه المنكرات تعاطي الخمرة والحشيش، ويصف لنا المقريزي في وصفه لحوادث عام (590هـ) جانبا من انتشار شرب الخمرة وتعاطيها بين أفراد المجتمع، " إلى أن غلا سعر العنب لكثرة من يعصره، وأقيم طاحون لطحن الحشيش بالمحمودية"[3]، وهذا يصور مدى انتشارها وترك الإنكار لها.

وصاحب هذه المنكرات شيوع مجالس اللهو والغناء والرقص، التي كانت تعقد في الحدائق العامة، ويجتمع فيها أفراد المجتمع للترفيه عن أنفسهم[4]، كما وانتشرت بين أفراد المجتمع العديد من البدع والخرافات[5]، والعادات والتقاليد التي لا تمتّ للإسلام بصلة.

ولم يسلم المجتمع أيضا من تفشي بعض الأمراض الاجتماعية كالرشوة، ويصف لنا الشيزري صاحب كتاب" نهاية الرتبة في طلب الحسبة" أحوال وكلاء القضاء في أخذهم للرشوة، فيقول: " وأما الوكلاء الذين بين يدي القاضي فلا خير فيهم، ولا مصلحة للناس

المنارة للاستشارات

بهم في هذا الزمان، لأنّ أكثرهم رقيق الدين، يأخذ من الخصمين، ثم يتمسكون فيه بسنّة الشرع، فيوقفون القضية، فيضيع الحق ويخرج من بين يدي طالبه وصاحبه"[6] .

كما ابتُلي المجتمع الأيوبي بالخلافات والصراعات المذهبية، التي أضعفته وصرفت طاقته وإبداعه، ووصلت هذه الخلافات حدّ التكفير أحيانا، والتطرف والغلو أحيانا أخرى[7]، ويصف ابن واصل مشهدا من هذه الخلافات، وقد تحولت إلى فتنة في مدينة دمشق، فيقول: " وقعت بين الشافعية والحنابلة فتنة بدمشق بسبب العقائد، وتعصب عزّالدين بن عبدالسلام على الحنابلة جدا، لميله إلى مذهب أبي الحسن الأشعري" [8].

ونتيجة لتفشي العديد من مظاهر الفساد في المجتمع، فمن الطبيعي أن يتوجه كتّاب ذلك العصر بالنقد . الذي وصل حدّ الهجاء أحيانا . لكل من يساهم في تعطيل تقدم المجتمع، ولا يعطي الحقوق لأصحابها.

ثانيا: النقد الاجتماعي ودوره في تصوير المجتمع

كان الأدب . ولا زال . صورة ناطقة عن المجتمع في جميع عصوره، ومن الطبيعي أن يظهر منه لون يعكس الوتقع الاجتماعي، بل يصور تفاصيله، وينتقد مظاهره السلبية، مدفوعا بالمصلحة العامة، ليست الشخصية، والعمل الفني الناجح هو الذي يقدم إلى المجتمع شيئا يتفاعل معه ويفيد منه، ومن الطبيعي أنّ هذا التفاعل يكون في أقوى صوره حين يكون العمل الفني مصورا ومسايرا للاتجاه العام وروح العصر السائدة، فالأساس الاجتماعي إذن يربط بين العمل الفني وظروف الحياة السائدة[9]، وهذا ينطبق على الفنون الأدبية، ومنها النثر والرسائل على سبيل المثال.

وهنالك من اعتبر النقد الاجتماعي تطورا عن الهجاء، رغبة في تطهير المجتمع من الفساد، لذلك نجد هجاء للخلفاء والوزراء وأصحاب المناصب العليا، وكان الهجاء يرسم المساوئ الفردية والاجتماعية التي ينبغي أن يتخلص منها المجتمع، فهو صحيفة تربوية ترسم ما يدور في المجتمع وتحاول تصويبه[10]، ويبدو أنّ التقارب بين النقد الاجتماعي والهجاء نابع من كونهما انتقاد يشوبه الذم والسلب؛ لسلوكيات يعاني منها المجتمع، كهجاء المتكسبين والمرائين والطامعين في المناصب.

ويرى أحمد فوزي الهيب: " أنّ النقد الاجتماعي نوع إيجابي من الهجاء، تجاوز حدود الفردية الضيقة، ليتناول ما يراه من مثالب ذات آثار سلبية على المجتمع، سواء أكانت

المنارة للاستشارات

صادرة عن الفرد أم عن المجتمع، ويسلط عليها أضواء النقد والتجريح، رافعا بذلك صوته، لعله يجد آذانا صاغية تستجيب، وإذا لم يجد فحسبه أنّه قال كلمة الحق، وألقى من فوق كاهله تبعة السكوت عنها[11]، فمتى كان الهجاء ذا طابع اجتماعي كان نقدا اجتماعيا، هدفه الإصلاح وتصويب المسار.

ثالثا: موضوعات النقد الاجتماعي في المجتمع الأيوبي وتصدي الكتّاب لها

عانى المجتمع في هذا العصر بعضا من مظاهر الفقر والحرمان، فرضتها عليه ظروف الحرب من جهة، والسياسات الغاشمة لبعض الحكام من جهة أخرى، فكان النقد الاجتماعي وسيلة لإظهار الشكاية والرفض، وتصوير الحال التي آل إليها أفراد المجتمع.

وفي هذا الصدد سنقف على فقرات من تقليد سلطاني بولاية دمشق المحروسة، من ديوان السلطان الملك الأفضل بن السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة(586هـ)، يعطينا فكرة عن حجم الموبقات والكبائر التي ألمّت بالمجتمع آنذاك، يقول كاتب التقليد: " ومن المهم عندنا حدّ الخمر، فالناس قد تهافتوا على شربها وإدمانها، وجاهروا في افتعالها وعصيانها، ولم يردعهم الحد عليها عن ورود مكانها، ونحن نأمرك بأن تقتلع شرّها من أصله، وتسدّ على شيطانها أبواب سبله، ولا يتم ذلك إلا بأن تجتهد في منع جلّها وتحريم حلّها، وإراقة زقاقها ودنانها، واستهلاك الدّواب الحاملة باستحلال أثمانها، وأن تتعهد قيانتها بالنفي والاشتهار، وهتك الأستار، واستعن على أمرك بكل محتسب يتولى الأمر بالمعروف، وبالعلماء من رجال الله الذين ينظرون بنوره من وراء السجون ..." [12].

ويتجلى في هذه القطعة الفنية النثرية، الجديّة والصرامة في قطع كل مصدر للخمرة، ومحاسبة المسؤولين عن جلبها وبيعها ومعاقرتها، حرصا من سلاطين الدولة الأيوبية، على تطبيق الأحكام وتنفيذ أوامر الشريعة الإسلامية.

وفي موضع آخر من نفس التقليد، إشارة إلى تفشي الرشوة وانتشارها بين أفراد المجتمع بكل طوائفهم، وفي ذلك يقول: " وههنا كبيرة من أعظم الكبائر وقد فشت في النّاس حتى صارت صغيرة من الصغائر، وذلك أنّ ولاة السوء قد ألفوا تناول الرشوة التي تغير حكما، وتختم على القلوب ختما، وسمّاها الله سحتا وإثما، وأنت يمنعك عنها دينك والذي هو عصمة أمرك وعلو نفسك"[13].

المنارة للاستشارات

وفي منشور كتبه العماد الأصفهاني لمحتسب حلب، يذكر فيه بعضا من ألوان المنكرات الشائعة، كالتطفيف في الكيل، والغشّ والاحتكار، ويدعو إلى ضرورة محاربتها ، يقول: " وَليَنهَ عن الغشّ في العروض والنقود، وعن الربا في المعروض والمعقود، وعن التطفيف في الكيل والوزن والدُّرع، وعن التنكب في المقادير والمعايير، والمكاييل عن العرف المعتبر في الشرع"[14].

وتتأكد فكرة النقد الاجتماعي في محاربة الجشع والطمع، عند بعض الأغنياء والأثرياء، فهذا ابن الأثير يصور احتكارهم واستغلالهم لأقوات الفقراء، وتأثر أفراد المجتمع بذلك؛ بأن يزدادوا فقرا، فنجده يقول: " ومن الناس من آتاه الله مالا فبثّ في الأسواق جنود ذهبه وورقه، واحتكر ما حمله الميزان من ذوات رطله، فأصبح فقراء بلده في ضيق من عدم الرفق ومدد الرزق"[15].

هذا وقد ساهمت الحروب الصليبية الدائرة آنذاك، في كثرة الرقيق والجواري، الذين بدورهم أثروا تأثيرا كبيرا في حياة المجتمع الإسلامي وتركيبته السكانية، فنجد ابن الأثير يصف لنا الدور الذي لعبته الجواري والمغنيات وتأثيرهن على العقول، من خلال مجالس اللهو والغناء، يقول في ذلك: " فهنّ يلعبن بالعقول، ويغنين الشيطان بغنائهن عن بثّ الجنود، وفتيا النفس الأمّارة ..." [16].

ونتيجة لكثرة الحروب والمعارك في تلك الفترة، وانتشار ظاهرة الرقيق والجواري، فقد أدى ذلك إلى ظهور ألوان من الانحلال الخلقي والفسق والفجور، عبّر عنه القاضي الفاضل في رسالة وجهها إلى صلاح الدّين الأيوبي، مشيرا وناصحا، وباحثا عن مصالح الإسلام، بضرورة محاربة ومواجهة هذه المظاهر والسلوكيات المرفوضة في المجتمع، يقول القاضي الفاضل: " والمعاصي في كل مكان بادية، والمظالم في كل موضع فاشية، وقد طلع إلى الله تعالى منها ما لا يُتوقّع بعدها إلا ما يستعاذ منه"[17].

ويطالعنا أدب الرسائل ببعض السلوكيات والتجاوزات اللأخلاقية التي تفشت بين أفراد المجتمع الأيوبي، ومن ذلك مرسوم لابن الأثير، يمنع فيه الابتذال في اللباس، والتشهير بالحركات، درءا ومنعا للفساد والانحراف، يقول فيه: " ولهنّ محدثات في المنكر، أحدثها كثرة الإرفاه والإتراف، وأهمل إنكارها حتى سرت في في الأوساط والأطراف، وقد أحدثن الآن من الملابس ما لا يخطر للشيطان في حساب، وذلك من لباس الشهوة الذي

المنارة للاستشارات

لا يستر منه إسبال مرط، ولا إدناء جلباب"[18]، ويبدو هنا أنّ عدم الاحتشام والإخلال بالذوق العام، هو ما دفع ابن الأثير للخوض في هذا الموضوع، وبالتالي يتضح إلى أي مدى وجود تجاوزات لا أخلاقية سادت وتفشت آنذاك.

كما ويبدو أنّ المجتمع الأيوبي كان يئنّ تحت وطأة الضرائب والمكوس المفروضة عليه، خاصة إذا اجتمعت مع حروب وفتن وكوارث وظروف قاسية، ومن الطبيعي أن يطالب الشعب بتخفيض هذه الضرائب، أو حتى إلغائها، لما لها من أثر اقتصادي ينعكس على مظاهر الحياة اليومية عند أفراد الشعب، وفي رسالة للقاضي الفاضل، نجد تعبيرا عن حال الناس وصوتهم بتخفيف أعباء الحياة عليهم، ويصف فيها كثرة هذه الضرائب وتعدادها، يقول القاضي الفاضل في توقيع له بإسقاط المكوس والضرائب عن أهل حلب: " وانتهى إلينا أنّ بمدينة حلب رسوما استمرت الأيدي على تناولها، والألسنة على تداولها، وفيها بالرّعاة إرفاق، وبالرعايا إضرار، ولها مقدار إلّا عند من كلّ شيء عنده بمقدار، منها ما هو على الأثواب المجلوبة، ومنها ما هو على الدّواب المركوبة، ومنها ما هو في المعايش المطلوبة، وقد رأينا بنعمة الله علينا أن نبطلها ونضعها، ونعطّلها وندعها"[19] .

كما كان هنالك لحجاج بيت الله وزائريه، ضرائب تفرض عليهم أيضا، ويصور العماد الأصفهاني بأسلوب طريف، حال الحاجّ وقد تعسرت أحواله، بعد عدم قدرته على دفع هذا النوع من الضرائب، يقول في ذلك: " فإذا دخل حاجّ حُبس حتى يؤدي مكسه، ويفك بما يطلبونه من نفسه، وإذا كان فقيرا لا يملك، فهو يُحبس ولا يُترك، وتفوته الوقفة بعرفة ولا تُدرك"[20] ، فكان من صلاح الدّين الأيوبي أن أسقط هذه الضرائب عن كاهل حُجّاج بيت الله الحرام.

وقد أدّى تعدد الفئات الاجتماعية في المجتمع الأيوبي وتباينها، إلى ظهور كثير من العادات والمعتقدات، تُرجمت في سلوك أفراده وتوجهاتهم، ومنها على سبيل المثال . لا الحصر. كثرة الأعياد والمناسبات، منها ما هو متوارث، ومنها ما هو مستحدث مبتدع، فقد بالغ البعض في كثرة الأعياد، وطريقة الاحتفال بها، وما يرافقها من مظاهر ذكرها الكتّاب في رسائلهم، ومنهم القاضي الفاضل الذي ذمّ مظاهر الاحتفال بعيد النيروز، لما فيه من عادات يرفضها الشرع ولا يقرّها، يقول في تصوير مظاهر الاحتفال بعيد النيروز عند أهل مصر:" وقد كان بمصر في الأيام الماضية، من مواسم بطالاتهم، ومواقيت ضلالاتهم . يعني

المنارة للاستشارات

النيروز. فكانت المنكرات فيه ظاهرة، والفواحش صريحة في يومه...، ولكن قد رُشّ الماء في الحارات، وأحيا المنكر في الدّور أرباب الخمّارات، واستُجد التراجم بالبيض، والتصافع بالأنطاع"[21] .

ويطالعنا أدب الرحلات بصور حيّة من مظاهر النقد الاجتماعي، لبعض السلوكيات والمعتقدات التي سادت في المجتمع الأيوبي، فهذا ابن جبير يوجه سهام نقده لبعض الممارسات والعادات التي شاهدها ووصفها، ومنها وصفه لعادة أهل الشام في السلام، فيصور حالة الانحناء التي تصاحب السلام، وكأنها سجود وركوع، بل ويبدي امتعاضه لهذه العادة، فيقول:" وصفة سلامهم إيماء للركوع أو السجود، فترى الأعناق تتلاعب بين رفع وخفض، وبسط وقبض، وربما طالت بهم الحالة في ذلك، فواحد ينحطّ وآخر يقوم، وعمائمهم تهوي بينهم هُويّا، وهذه الحالة من الانعكاف الركوعي في السلام كنّا عهدناه لقينات النساء، وعند استعراض رقيق الإماء، فيا عجبا لهؤلاء الرجال ..."[22] .

ويتضح لنا النفور وعدم الرضا من بعض العادات المنتشرة في المجتمع الأيوبي، من خلال نبذها وإنكارها، كما هو الحال في حديث ابن جبير عن أهل بغداد، حيث يظهر التصنع ويسود النفاق الاجتماعي بين الناس، وعدم تقبلهم للضيوف والغرباء، يقول في ذلك:" وأما أهلها فلا تكاد تلقى منهم إلا من يتصنع بالتواضع رياء، ويذهب بنفسه عجبا وكبرياء، يزدرون الغرباء...، فالغريب فيهم معدوم الإرفاق، متضاعف الإنفاق، لا يجد من أهلها إلّا من يعامله بنفاق، أو يهشّ إليه هشاشة انتفاع واسترفاق، كأنهم من التزام هذه الخلة القبيحة على شرط اصطلاح بينهم اتفاق"[23] .

كما وأظهرت رحلة ابن جبير جانبا آخر من العادات والبدع السائدة ، المرتبطة بالمآتم والأحزان، خاصة فيما يتعلق بتشييع الموتى والمشي في الجنائز، ويشير ابن جبير في هذا السياق إلى ما يُسمى بـ " نقباء الجنائز ووظيفتهم رفع الأصوات لكل واصل إلى العزاء" [24]، ويصف عادة المشي مع الجنازة وقراءة القرآن بقوله: " فهم يمشون أمام الميت بقرّاء يقرأون القرآن، بأصوات شجية، تكاد تنخلع لها النفوس شجوا وحنانا "[25] ، وتحفل رحلة ابن جبير بكثير من السلوكيات الاجتماعية، التي ينتقدها بشدّة، ويسخر من بعضها ويذمّه.

وفي تقليد لابن الأثير، نجده يندد بمثل هذه الممارسات والعادات، كزيارة القبور والتبرك بها، وما يصاحبها من اختلاط وسفور، ويدعو إلى الإقلاع عنها؛ لما فيها من تشبّه

المنارة للاستشارات

بالجاهلية، فقد" جعلوا القبور مواسم لاجتماع الزائر والمزور، فصارت المآتم بينهم ولائم، والمنادب عندهم مآدب"[26] .

وبما يرتبط بهذه العادات والبدع، فقد صوّر الكتّاب بعضا من الخرافات والمعتقدات التي سادت آنذاك، فقد أكثر الناس وقتها من زيارة المنجمين والمشعوذين، حتى سرى ذلك علانية، ما دفع العماد الأصفهاني لكتابة منشور لصاحب الحسبة، يوصي فيه بمحاربة هذه الفئة، التي تحتال على الناس، وتستغل حوائجهم، يقول في ذلك:" وليَمنع الطُرقيين، والمتعاطين للطبّ على التخمين، وليَصدهم عن مداواة الأمراض، ومزاولة الأعراض، ومعالجة العيون، ومعالجة الأدواء بالظنون، وليَزع المتلبسين بالتنجيم والشعوذة والكهانة، وليُهن القائلين بها، والقاطعين بحكمها كل الإهانة"[27] .

ومن الآفات الاجتماعية التي أصابت المجتمع الأيوبي وأضعفته، كثرة الخلافات والصراعات المذهبية، فكان التعصب المذهبي ظاهرة متجذرة في المجتمع الإسلامي، أوصلت أصحاب المذاهب إلى حدّ الغلو والتطرف، في وقت عصيب يحتاج إلى الاتحاد ووحدة الصفّ، لمواجهة المخاطر والتحديات التي تواجه الأمة الإسلامية؛ لهذا نجد أنّ الكتّاب قد تصدوا لهذه المظاهر، وحاربوا مثل هذا النوع من الآفات الاجتماعية، وبيّنوا آثارها على النسيج الاجتماعي، ومن ذلك ما قاله القاضي الفاضل في وصف التعصب المذهبي، يقول:" ولم يزل التعصب للمذاهب يملأ القلوب بالشّحناء، ويشحنها، وقد نهى الله عن المجادلة لأهل الخلاف، فكيف لأهل الوفاق إلّا أن يُقال: أحسنها، وما علمنا أنّ في ذلك نيّة تُنجد، ولا مصلحة توجد، ولا هداية تُعتقد، بدراسة تُعقد، ونار عداوة تُوقد، وقلّما أثمرت المشاجرة إلّا خلاف"[28] .

وإذا ما أردنا أن نتعرف على ما يشغل الرأي العام في المجتمع الأيوبي، لا بدّ من الإشارة إلى مقامة للوهرانيّ، يصور فيها الواقع الاجتماعي، ويبرز فيها مظاهر النقد الاجتماعي للعديد من القضايا والسلوكيات والعادات السائدة، والكثير مما يعانيه أفراد المجتمع، فقد كتب الوهرانيّ مقامته على شكل رسالة يوجهها جامع دمشق، وكأنها لسان حال كلّ فرد في المجتمع، ومن ذلك قول مساجد دمشق مخاطبة جامع دمشق:" وينهون إلى مجلسه السامي ما يقاسونه من جور العمال، وتضييع الأعمال، ونهب الوقوف، وخراب الحيطان والسقوف"[29] .

المنارة للاستشارات

وهي مقامة فريدة في فكرتها، طريفة في محتواها، تصورمن خلال الرمزوالإيحاء حال المدينة، وحال سكانها، فقد جعل كاتبها مساجد المدينة تنقل شكواها إلى كبيرهم جامع دمشق، بالنيابة عن أهل البلد، وكأنها لسان حالهم.

والجدير بالذكر أنّ مقامات الوهراني ورسائله، قد حوَت في ثناياها الكثير من صور النقد الاجتماعي في عصره، تناولها بأسلوب أدبي جميل، تشوبه السخرية من المظاهر المرفوضة اجتماعيا، فتارة نجده ينتقد القضاة والمسؤولين[30]، وتارة أخرى يوجه سهام نقده لبعض الطوائف الدينية ويُعرّض بها، فقد استغلت مكانتها في المجتمع للوصول إلى أهداف شخصية، ومصالح آنية، كطائفة الصّوفية[31]، وتسير مقاماته ورسائله بهذا النهج النقدي، لكل ما تراه عينه، وكل ما يعانيه أفراد المجتمع، فنجده يرسم صورا حيّة نابضة لمظاهر الفساد المستشري في المجتمع الأيوبي آنذاك، رغبة منه في وصول صوته لأصحاب القرار، وتأكيدا على ضرورة التغيير للأفضل.

النتائج

درست في الصفحات السابقة النقد الاجتماعي من خلال النثرالأدبي في العصر الأيوبي، وتبين لي ما يلي:

1. تناول الكتّاب أهم القيم والسلوكيات والأخلاقيات المنحرفة عند بعض طبقات المجتمع، من خلال تسليط الضوء على مظاهر الفساد في المجتمع الأيوبي، وأبرزوا بعضا من المفاسد والمحرمّات التي نخرت جسد المجتمع الإسلامي آنذاك، فالكتّاب جزء لا يتجزأ من أفراد المجتمع، وهم لسان حاله فيما يؤرقه.

2 . برز دور الكتّاب من خلال تصويرهم لمظاهر الفساد، وتعريتها أمام الرأي العام، وإيصال رسالة لأُولي الأمر؛ رغبة في ضبط الأمور، وإعادة المسار إلى الطريق القويم، فقد نهضوا بدورهم على أكمل وجه.

3 . ساهم هذا النوع من النثر الأدبي في تصوير الواقع الاجتماعي بتفاصيله الدقيقة، وإعلان الرفض وعدم القبول بهذه المظاهر، التي لا تمتّ للإسلام بصلة، فهذا الدور التوعوي لدى الكتّاب كان له جانب آخر، وهو محاربة مظاهر الفساد بجميع أشكالها، كي تكون الأمة قادرة على مواجهة أعدائها، لا سيما الحملات الصليبية التي كانت تتوالى على الأمة الإسلامية آنذاك.

والله من وراء القصد

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊

الهوامش:

(1) سلّام، محمد زغلول، الأدب في العصر الأيوبي، دار المعارف، الإسكندرية . مصر، (1990م)، ص56.

(2) انظر: بدوي، أحمد أحمد، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام،دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة . مصر، ط2، (1977م)، ص55.61.

(3) انظر: المقريزي، أحمد بن علي، السلوك لمعرفة الدول والملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة . مصر، ط2، (1956م)، ج1، ص119.

(4) حسين، محمد كامل، دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين، مؤسسة هنداوي . المملكة المتحدة، (2017م)، ص143.

(5) انظر: أبو شامة المقدسي، الباعث على إنكار البدع والحوادث،تحقيق:محمد محب الدين أبو زيد، دارمجد الإسلام، القاهرة . مصر، ط1،(2007م)، ص(241.202).

(6) الشيزري، عبدالرحمن بن نصر، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، نشره السيّد الباز العريني، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة . مصر،(1946م)، ص115.

(7) انظر: الكيلاني، ماجد عرسان، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، دار القلم للنشر والتوزيع، دبي . الإمارات، ط 3، (2002م)، ص(55.42)

(8) ابن واصل، جمال الدّين محمد بن سالم، مفرج الكروب في أخبار بني أيّوب، تحقيق: حسنين محمد ربيع، دار الكتب والوثائق القومية بجمهورية مصر العربية، (1975م)، ج5، ص(141. 142).

(9) إسماعيل، عزّالدين، الأسس الجمالية في النقد العربي،دار الفكر العربي، القاهرة . مصر، ط3،(1974م)، ص106.

(10) انظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول)، دار المعارف . القاهرة، ط6،(1966م)، ص167.

(11) الهيب، أحمد فوزي، الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء، مؤسسة الرسالة . بيروت، ط1، (1986م)، ص165.

(12) الحمويّ، محمد ياسين، دمشق في العصر الأيوبي، مكتبة النشر العربي، دمشق . سوريا، (1946م)، ص(31.30).

(13) الحمويّ، دمشق في العصر الأيوبي، ص32.

(14) الأصفهاني، محمد بن حامد، البرق الشامي، تحقيق: فالح صالح حسين، مؤسسة شومان، عمّان . الأردن، ط1، (1987م)، ج5، ص135.

(15) ابن الأثير، نصرالله بن محمد، رسائل ابن الأثير، تحقيق: أنيس المقدسي، مطبعة بيروت .لبنان، (1906م)، ص144.

(16) ابن الأثير، رسائل ابن الأثير، ص146.

المنارة للاستشارات

[17] المقدسي، أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين النّورية والصلاحية،تحقيق: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت . لبنان، ط1، (1997م)، ج4، ص174.

[18] ابن الأثير، رسائل ابن الأثير، ص145.

[19] أبو شامة المقدسي، الروضتين، ج3، ص175.

[20] أبو شامة المقدسي، الروضتين، ج3، ص10.

[21] المقريزي، أبو العباس محمد بن علي، الخطط المقريزية" المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" ، تحقيق: محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة . مصر، (1998م)، ج2، ص357.

[22] ابن جبير، رحلة ابن جبير المسماة" تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار" ، دار صادر، بيروت . لبنان، (1995م)، ص268.

[23] ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص194.

[24] ابن جبير، رحلة ابن جبير ص267.

[25] ابن جبير، رحلة ابن جبير ص267.

[26] رسائل ابن الأثير، ص324.

[27] العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ج5، ص138.

[28] أبو شامة المقدسي، الروضتين، ج4، ص224.

[29] الوهرانيّ، محمد بن محمد بن محرز، منامات الوهراني ورسائله، تحقيق: إبراهيم شعلان ومحمد نغش، منشورات الجمل، كولونيا . ألمانيا، ط1، (1998م)، ص62.

[30] الوهراني، منامات الوهراني ورسائله، ص164، وانظر: ص144، 176.

[31] الوهراني، منامات الوهراني ورسائله، ص86.

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊